من رومة الى مكة

لحضرة صاحبة السمو أميرة سرواك

السيدة خير النساء

تعتبر السيدة «خير النساء» أميرة سرواك الانجليزية، من أشهر ربات الصالونات في باريس ولندن، ولهذا كان لاعتناقها الاسلام أثر كبير واسع المدى، حتى ان صحفاً أمريكية أوفدت من مندوبيها من تحدث اليها مستفهماً عن تعليل ذلك، كما ذهب البعض الآخر للتحدث مع الدكتور خالد شلدريك، رئيس المسلمين في انجلترا، الذي اعتنقت الاميرة الاسلام على يديه. وقد أرادت هذه السيدة الكبيرة ألا تكتفي بما نشرته الصحف الاوروبية والامريكية والاسيوية عن سبب اسلامها، ورأت أن تنشر كتاباً في ذلك عنوانه «من رومة الى مكة» (From Rome to Mekke) بالانجليزية والفرنسية. وهي تخص «مجلة المعرفة» بتعريب مقدمته قبل أن ينشر منه شيء في أوروبا.

يبين لنا التاريخ أن المدنيات تنشأ وترقى وتنتهي تبعاً لنسق ثابت معلوم، وللأسباب دائمة التشابه؛ ومع ذلك فإن الذكاء الإنساني لا يتغير على هذا النحو، وكذلك فانه لما كانت خطوات التقدم التي تحصل في الميدان المادي لا تفقد ولا تضيع؛ إذاً فانه لأسباب انحطاط الأمم وزوالها أصلا خلقياً وروحياً.

وإن الاضمحلال الذي يطرأ على المثل الأعلى لشعب ما، هذا المثل الأعلى الذي كان سبباً لعظمته، ثم إهمال الفضائل الأصلية للجنس، يستدعيان ويقويان عوامل الانحلال والفناء التي لا تلبث أن تنتصر.

وعندما أخذت امبراطورية رومة في السقوط تحت تدافع الجرمان، وتأثير الاضطرابات الداخلية، لم يشعر الناس الذين عاشوا في هذا العصر باضمحلال الامبراطورية، ولم ينتبهوا إلى العلامات التي كانت تنبيء حين تداعيها وسقوطها بنشأة عصر جديد، ومع ذلك انقض ذلك البناء الشامخ ولم يبق منه إلا صور، وقد حل الانخداع بالسلطان محل النضال، وزالت العناصر الروحية التي عملت على مجد رومة وازدهارها، ولم تعد المبادىء العظيمة: مبادىء الشرف والأمانة والتضحية، إلا كلمات جوفاء؛ وتداعت الفضائل الخلقية والدينية، وقام مكانها الفساد؛ وهوت الامبراطورية وفقاً لأمر التطور الذي لا يقبل الرد.

وفي حالة المجتمع الحاضر شبه يستدعي القلق بمرتبة الاضمحلال في المجتمعات الغابرة،

ويبدو فى هذا التشابه اجتماع لعلامات تنذر بالفاجعة ، ويسود القلق والحيرة فى كل مرافق العالم ، سواء فى ميدان الأخلاق ، أم فى الميدان الاجتماعى ، أو فى مجال الاقتصاد ؛ والعالم يحس ـ فى حيرة واضطراب ـ الخطر الذى يحدق به ويتهدده ، ويذيع فى قلوب الذين سيكونون أول الضحايا خلاء مرعباً ، وذلك لأنهم الأكثر ذنباً و إجراماً .

والواقع أن خطأ عصرنا ونقصه يرجعان إلى إغفال الشرائع والقوانين التى تسيطر على الناس والجماعات ، أى هجر المعارف الحقيقية والعلم الالهى ، والاستعاضة عنها بشبه معرفة وعلم جد إنسانى، والاعتقاد ـ فى سفه كبير ـ فى ذلك الوهم .

وقد اعتبر الناس أخطاءهم تقدماً ونجاحاً وارتكبوا إثماً كبيراً، إذ استبدلوا بالله تعالى العقل الانسانى الذى هو من خلق الله ، وحسبوا أنهم أهل لأن يكونوا أكفاء لله أو أشباهاً له ، وظنوا أن النجاح المادى جدير بأن يقوم مقام السمو الروحى؛ وزعموا إذ استطاعوا الانتفاع بالقوى الطبيعية أنهم يسخرونها ، وأخذهم الغرور بعلومهم فظنوا أنهم أرباب الخلق ، مع أنهم لم يستطيعوا أن يقيموا على تلك الأسس العلمية شيئاً له دوام . إن المجتمع الذى يحرم نفسه من قيادة روحية، ليقتحم مأزق لا مخرج له منها، وإن الانسانية التى تؤمن بالنجاح والتقدم القائمين على قواعد إنسانية إنما تدفع بنفسها إلى العدم .

والناس يلاقون جزاء أخطائهم فى مجرى الحوادث ، وإن الظروف العنيفة التى يجتازها العالم ، وإن كانت الأوهام التى أقام عليها الناس آمالهم، وطيبة المبادىء التى كانت ترجى السعادة منها ، وعقم العلم والنظام الآلى وما فيهما من غرور، كل هذا يعمل على خلق اضطراب وفوضى، يظهر ان الوسائل المادية عاجزة عن إيقافها ؛ وإذ أطلق الناس العنان لغرائزهم ، فقد ابتعدوا شيئاً فشيئاً عن القوانين الخلقية ، واعتبروها عقبات فى سبيل ما يسمونه تحريراً أو خلاصاً .

والله نفسه ـ فى نظر هؤلاء ـ عقبة أيضاً؛ وقد تولت نفوسهم ومشاعرهم عن الله تعالى ـ هذا الرب القاضى الذى أقلقهم ! ـ وتولوا عنه باسم العقل والعلم، وذهب خصوم الدين إلى نفى وجود الله نفياً كلياً؛ وإن الكنيسة نفسها لمسئولة ، بسبب موقفها ، عن إبعاد الناس عن الله ؛ وجعله فى منأى عنهم ، وذلك لغموض أصولها وتعاليمها .

وإن الذين « يعلمون » يصرخون صرخة الفزع ، ولكن الناس لا يصغون إليهم، كما لم يصغوا ـ من قبل ـ إلى صرخات الأنبياء من بنى إسرائيل ، وهم يتابعون خطاهم مسرعين نحو الهاوية صماً عن الانذار والتنبيه !

ومع هذا لم يضع كل شىء ، ومايزال فى الامكان رد فعل، ويكفى بدلا من خضوع الناس لغرائزهم ، وإلى غرورهم وتهافتهم ، أن يهجروا تصوراتهم المادية والأنانية ، إذ هى مصدر كل شرورهم وآلامهم ، وأن يستردوا الشعور بمثل أعلى .

ويكفى أن يفهموا المعنى الصحيح للحياة ـ ذلك المعنى الذى خسروه ـ وعليهم بدلاً من أن يصيروا مثلهم الأعلى فى المادة ؛ أن يذكروا أن لهم روحاً ، وأن هذه الروح متصلة بالله تعالى . وأنه ليس فى الامكان أن يوجد أمر حقيق أو جميل أو ثابت أو دائم ، إلا إذا قام بمدد الله وعنايته .

ويحاول الكثيرون الذين احتفظت نفوسهم بمعنى مثل أعلى ، أن يقاوموا هذا الانحلال . وهم يبحثون فى ماحولهم عن صيغة الدواء الذى ينقذ العالم ، ونحن نشاهد فرقاً متعددة وطوائف شتى تنشأ كثيرة العدد متأثر بعضها بالأناجيل والعهد القديم ، والبعض الآخر بمذاهب الهند . ويعود البعض الأخير إلى مذاهب الفلاسفة القدماء ويدعو إلى حياة الفطرة والبساطة . ولكل هذه المحاولات مبدأ مشترك ؛ إذ هى رد فعل يرمى إلى الخروج من المأزق الذى زج فيه المجتمع الحاضر ،

ويبين عدد هذه الطوائف أن الاعتقاد فى الروح ليس مذهباً ميتاً ، ويبين ـ إلى ذلك ـ أنهم يتمسكون فى يأسهم بأى مذهب يستطيع أن يقدم إليهم شيئاً من تلك العناصر العليا ، التى يحسون مسيس الحاجة إليها ، والتى يبحثون عنها بجشع كبير . ويبدو للكثيرين أن الحياة عديمة المعنى ، وذلك لأنهم فى حيرة تامة .

* * *

إذن : من ذا الذى يرشدهم إلى الطريق ؟ وأين يستطيعون أن يجدوا ذلك الهدى الذى ينقذهم ؟

إن كنيسة رومة لا تقدر على أن تؤدى بالناس إلى ما ينشدون من هدى ونور ، وأن ترشدهم إلى ما هم فى حاجة إليه لنجاتهم مما يعانون من أزمة .

وإنما يقدر على معجزة الانقاذ دين خالص قوى ؛ وإنى لأذهب إلى القول بأنه لا بد لارجاع الناس إلى تصور سليم للحياة من ديانة كاملة ذات قواعد ؛ إذ لا يستطيع أن ينهض بهذا مذهب من المذاهب مهما كان حظه من الاحكام .

ولكن هل من ديانة هى من الوضوح بحيث يقدر الجميع على فهمها ، ومن موافقة العقل والتوسع بحيث تستطيع أن تكون دليلا مرشداً دون أن تكون عقبة ؟

بلى ! إن الأبحاث التى أفرغت نفسى لها ، لكى أقضى على شكوكى وحيرتى ، لتسمح لى أن أجزم بذلك ، وأن أؤكد أنه لا يوجد إلا دين واحد يقوم تمام القيام بحاجات المجتمع الحاضر ، وينهض بكل الشرائط اللازمة لكى تستسيغه النفوس العصرية ـ هذا الدين هو الإسلام ـ .

هذا حل غير منتظر بلا شك ! لا سيما إذا اعتبرنا الأوهام السابقة التى تحيط فى أذهان الأوربيين ، بديانة النبى ، ولكنه حل مشرق تعقلناه وفهمنا مغزاه بروح القرآن .

إن القرآن قابل للتطبيق عند كل جنس ، دون أن يكف عن كونه أسمى تعبير عن الحقيقة من وجهات النظر الثلاث ؛ أى من حيث : المعرفة ، والأخلاق ، والعمران ؛ ومن أجل هذا فهو عالمى يصلح لكل الناس .

ولكن الناس وهم يتخبطون فى حال عصبية من الحيرة باحثين عن طريق يتبعونه ، مع أن السبيل الأوحد للهدى هو فى العودة إلى اتباع الشرائع الالهية... يتساءلون لماذا يبقى الاسلام فى منأى عن متناول الباحثين، فى حين أنه يستطيع أن يكون فى سبيل النجاة ؟ والواقع أنه لا يوجد الآن مذهب سواه ينطق عن الحقيقة الأولى، ويقدر على أن يضعها فى متناول الجميع. وإن الاسلام يشتمل فى الحقيقة على كل الوسائل اللازمة للوصول إلى المعارف العليا، وإلى الحكمة دون خوف من الاصطدام بحدود أو عقبات .

حقاً إننا نجد القرآن طابع الدين الوحيد ، الذى أنزل للناس منذ القدم، هذا الدين الذى قامت عليه كل الأديان، وهو الدين الوحيد الذى لا يقبل التغيير، والذى بقى نفسه دون كل التحويرات التى شاء الناس ـ كبرياء أو جهلا ـ أن يحدثوها فيه ، ذلك لأنه هو الحقيقة ؛ ومن المحال أن يوجد أكثر من حقيقة واحدة ، وهذا من الأوائل الضرورية للعقل .

وإنى لأقول لهؤلاء الذين يقاسون ألم الحيرة النفسية ـ هؤلاء الذين يصدهم عن سبيل الله غموض فى ما تسمح لهم الكنائس بالوقوف عليه ، دون أن يكون لهم الحق فى تجاوزه ، هؤلاء الذين يصدم وجدانهم المعذب نفاق يشاهدونه لدى معلمى الأرواح، هؤلاء الذين يبحثون فى يأس واستماتة عن قاعدة وغاية فى كل المذاهب المختلفة ـ أقول لهؤلاء : خذوا القرآن وتأملوا ، وانسوا ما سبق لكم وراثته من أوهام وأحكام دون نظر شخصى سليم ، وافهموا المعنى الحقيق لمذهب النبى ، واخلعوا عنه رداء المجاز والفصاحة الشعرية التى تقتضيها معجزة البلاغة العربية ، وتفكروا فى ذاته دون أن تصلوا به مناظر أجنبية أو صوراً غريبة ؛ إذاً سوف تجدون فيه كل ما أوحى به الله عز وجل قبل وحيه لآخر رسله وخاتم أنبيائه . أى سوف تجدون فيه أروع التعبيرات عن الحقيقة، سوف تجدون فيه ـ دون أسرار ولا غموض ـ المذهب الذى يجمع بين التشخص والمثل الأعلى، والذى يهديكم إلى حياة بسيطة مستقيمة وعلى حق .

وإنى لواثقة أن الاسلام هو ديانة المستقبل وأن الرسالة التى كلف بها النبى محمد لم تنته بعد ، بل لا تزال موجهة إلى العالمين .

وسوف يعود السلم إلى الناس عندما لا تفصل بعضهم عن بعض انقسامات سطحية ، وعندما يجتمعون على إيمان واحد فى معرفة الله ومحبته ، لأن الله هو إله الجميع . هذه نتيجة لا يتيسر إدراكها إلا عند وضع الحقيقة فوق كل المسائل المادية والأنانية ، أى بعزلها عن الصور التى أسبغها عليها هؤلاء الذين يستفيدون من إخفاء الحقيقة ، وكذلك بأن يبين للشعوب والأمم أنه يوجد فوق عداواتهم ومطامعهم إله واحد، شرائعه التى لا تتبدل واحدة للجميع .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » ٢ : ٢٨٤ .

[باريس] ترجمه عن المخطوط الأصلى : م . خ .